تأملتُ حالَ الناس مع طلبِ العلم .. فوجدت عجَباً!

وجدت تحزباً في الطلب .. فالطالب لا يطلب العلم إلا من شيوخ حزبه .. ولا يقبل الحق إلا إذا جاءه من شيوخ حزبه .. ولا يرد الباطل إلا إذا جاءه الرد من قبل شيوخ حزبه .. وكل ما يخالف أراء وأقوال شيوخ حزبه ـــ وإن كان حقاً ـــ فهو رد .. وعرضة للاستهجان والاستخفاف!

وجدت تعصباً وتحزباً للمسائل وفي المسائل ـــ التي يُستساغ فيها الخلاف ـــ يُوالى ويُعادى فيها .. فرتبوا عليها ولاءً وبراء .. وحبًّا وجفاءً .. فمن قال في المسألة على النحو الذي يوافق فيه أهواءهم .. أقبلوا عليه .. وأثنوا عليه خيراً .. ومن قال في المسألة على النحو الذي يُخالف فيه أهواءهم .. أدبروا عنه .. وأثنوا عليه شرًّا!

وجدت نفوراً عن الجد والعلم النافع .. والإقبال على الهزل واللعب .. ومجالس الطعن والغيبة .. والخوض في الأعراض .. تحت مسمى وذريعة الجرح والتعديل زعموا .. وهذا من تلبيس إبليس على القوم!

وجدت نفوراً عن تعلم التوحيد وفروض الأعيان .. والإنشغال بالنوافل والمباحات .. وبما قلَّ نفعه!

وجدت نفوراً عن تعلم العلم الذي يترتب عليه حركة وعمل وتبعات ومواقف وعطاء؛ كالجهاد في سبيل الله، والولاء والبراء .. وإقبالاً على كل ما هو سهل .. ولا يتجاوز حدود الاعتقاد القلبي أو ممارسة العبادات الفردية المعروفة .. فيتركون من الدين كل ما هو صعب على نفوسهم .. ويأخذون منه كل ما هو سهل .. كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض!

وجدت نفوراً عن طلب العلم لله .. وإقبالاً على طلبه من أجل الدنيا .. ومتاعٍ ساقط .. وطلب الرياسة والزعامة .. واستشراف المجالس .. وصرف وجوه الناس .. وحب الظهور .. وليقال فلان دكتور أو عالِم!

وجدت نفوراً عن الكتاب والسنة الصحيحة .. وإقبالاً على الغريب والضعيف .. والموضوع .. والبِدَع .. وما يستحسنه أو يطلبه الجمهور!

وجدت نفوراً عن مجالسة العلماء العاملين .. والاستماع إليهم .. وإقبالاً على مجالسة أهل الأهواء والبدع .. والضلال!

وفي الأثر عن معاذ بن جبل ﵁ قال: إن من ورائكم فتناً يكثرُ فيها المالُ، ويُفتح فيها القرآنُ حتى يأخذَهُ المؤمنُ والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحر، فيوشك أن يقولَ قائلٌ: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدَع؛ فإن ما ابتدَع ضلالة!

وفي رواية عنه:" فإياكم وإياه فإنها بدعة ضلالة " يكررها ثلاثاً!

وقد سألني سائل: كيف نفسر إقبال الناس الشديد على مجالس أهل البدع والأهواء .. وعلى مجالس اللهو واللعب .. بل على راقصة مغنية تعلو المسرح للغناء .. يجتمع حولها الآلاف من الناس؛ ذكوراً وإناثاً يتمايلون بعضهم على بعض انسجاماً مع غناء المغنية .. بينما مجالس العلماء العاملين .. الدعاة إلى الله؛ الذين يدعون عبادَ الله إلى عبادة الله تعالى وتوحيده .. لا ينالون مثل هذا الإقبال أو القبول .. وربما لا يتعدى عدد جلسائهم ممن يستمعون إلى دروسهم بضعة عشرات .. وربما بضعة أفراد .. فهل هذا علامة على أن الأوائل قد نالوا القبول في السماء وفي الأرض .. بينما الآخرون ـــ الدعاة إلى الله ـــ لم ينالوا هذا القبول؟!

قلت وأقول: الخلل في الناس وما يعتريهم من أمراض وأهواء .. وحبٍّ للشهوات .. وليس في الدعوة أو الدعاة إلى الله!

ثم أن القبول أو عدمه له قرائن وعلامات عدة يُعرف بها ليس منها ما ذُكر في السؤال، من هذه القرائن والعلامات: أن القبول يُنظر إليه من جهة الخير لا الشر؛ لأن القبول تعبير عن رضى الخالق ﷻ ومحبته، والله تعالى لا يرضى ولا يُحب إلا الخير؛ وبالتالي لو أقبل الناس على الشر ـــ مهما كثر عددهم ـــ لا يجوز أن يُعتبر إقبالهم هذا نوع قبول لهذا الشر أو لصاحبه.

ومنها: سعة تعميم وانتشار الخير؛ فكلما انتشر الخير واتسعت دائرة المستفيدين منه .. كلما كان ذلك علامة دالة على قبول هذا الخير وقبول صاحبه عند الله تعالى.

على سبيل المثال: عالم يقول كلاماً نافعاً أمام خمسة أشخاص فقط .. فيبارك الله بكلامه .. ويسخر له الأسباب ليُعمَّم فيما بعد على ملايين الناس .. وفي أمصارٍ عدة .. وعالم أو إنسان آخر يقول كلاماً نافعاً آخر أمام ألفِ شخصٍ .. ثم يُقدر الله لكلامه أن لا يتعدى مجلسه أو العدد المذكور .. وعليه يكون الأول قد نال القبول عند الله وفي الأرض أكثر من الآخر علماً أن الأول استمع لكلامه خمسة أنفار فقط بينما الآخر استمع لحديثه ألف إنسان!

ومنها: اعتبار الزمن؛ إذ كلما طال زمن الاستفادة من خير ما كلما كان ذلك دالاً على قبول هذا الخير عند الله تعالى وقبول صاحبه؛ فهناك خير يُعمّر شهراً أو سنةً أو بضع سنين .. وهناك خير يُعمَّر مئات السنين والناس يتداولونه ويتناقلونه وينتفعون منه .. فيكون هذا الخير وصاحبه أكثر قبولاً عند الله من غيره ممن لم يُعمر خيرهم إلا لأشهرٍ أو سنوات.

كم من كتاب اندثرت معالمه وآثاره بعد سنة أو سنوات وربما أشهر من تأليفه .. بينما كتب أخرى يُوضع لها القبول لمئات السنين .. تتناقلها الأجيال جيل بعد جيل؟!

ومنها: ثناء المؤمنين الموحدين ـــ على الخير وفاعله ـــ بالخير؛ فثناء الموحدين ـــ وليس غيرهم ـــ معتبر عند الله، وهو بشرى خير للمرء .. ومن يُحبه الله تعالى يضع له الثناء الحسن على ألسنة عباده المؤمنين الموحدين، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنيين أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً، إلا قال الله تعالى وتبارك: قد قبلت قولكم، أو قال: بشهادتكم، وغفرت له ما لا تعلمون".

وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال النبي ﷺ:" أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة، قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله في الواحد ".

وقال ﷺ:" إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن، فأنت محسن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء، فأنت مسيء ".

وقال ﷺ:" إذا أتى الرجلِ القومَ فقالوا له مرحباً، فمرحباً به يوم يلقى ربه، وإذا أتى الرجلُ القومَ فقالوا له: قحطاً، فقحطاً له يوم القيامة ".

وقال ﷺ:" أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيراً، وهو يسمع، وأهل النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شراً وهو يسمع ".

وقال ﷺ:" إذا صلوا على جنازة فأثنوا خيراً، يقول الرب: أجزت شهادتهم فيما يعلمون، وأغفر له ما لا يعلمون ".

ومنها: اعتبار الخاتمة؛ فالمرء الذي يُختم له بالخير يُبارك الله بعمله وحسناته أكثر ممن يُختَم لهم بسوء أو شر؛ فمن يُختم له بالشهادة ليس كمن يُختم له بغير ذلك .. ومن يُختم له بالكفر والشرك يُحبط الله عمله كلياً ويجعله هباءً منثوراً، كما قال تعالى:﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال تعالى:﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾.

بهذه العلامات والقرائن يُعرف القبولُ من عدمه .. وليس بمجرد كثرة المجتمعين في مجلس من المجالس على شخصٍ من الأشخاص .. وفي ساعة من الساعات .. كما يظن البعض .. فإن من الأنبياء من لم يؤمن به إلا الرجل الواحد .. ونوح عليه السلام ظلَّ يدعو قومه إلى الإسلام والتوحيد قرابة ألف عام فما آمن معه إلا قليل من المستضعفين لم يتجاوزوا العشرات، كما قال تعالى:﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. بينما الملأ والسواد الأعظم من الناس قد آثروا الكفر والعصيان.

ونقول كذلك: أن الدين بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، ونحن نعيش ــ في زماننا ــ كثيراً من معالم هذه الغربة .. فطوبى للغرباء الذين يتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين!

قال رسول الله ﷺ:" طوبى للغرباء ثلاثاً، قالوا: يا رسولَ الله ومن الغرباء؟ قال: ناس صالحون قليل في ناسٍ سوء كثير، من يبغضهم أكثر ممن يطيعهم " وفي رواية:" ومن يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم ".

وقال ﷺ:" طوبى للغرباء الذين يمسَّكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفأ ". وقال ﷺ:" سيُنقَض الإسلام؛ المتمسك يومئذٍ بدينه كالقابض على الجمر أو خبط الشوك ".

عن أم الدرداء قالت: دخلَ عليَّ أبو الدرداء وهو غضبان، فقلت له ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمدٍ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً!

قلت: كيف لو أدرك أبو الدرداء زماننا ماذا تراه سيقول ..؟!

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: لو أنَّ رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناسَ اليومَ، ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه!

قلت: كيف لو أدرك سلفنا الصالح زماننا ماذا تراهم سيقولون أو يعرفون ..؟!

وعن ميمون بن مهران قال: لو أنَّ رجلاً أُنشرَ فيكم من السلف، ما عرَفَ فيكم غير هذه القبلة!

قلت: كيف لو أنشر في زماننا ماذا عساه أن يعرف مما كان عليه السلف الأول ..؟!

وعن عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن حبان بن أبي جبلة، عن أبي الدرداء، قال: لو خرج رسولُ الله ﷺ إليكم اليومَ ما عرَفَ شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة!

قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟!

قال عيسى: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟!

قلت: كيف لو أدرك سلفنا الصالح هذا الزمان الذي نحن فيه ..؟!

قال ابن المبارَك: أعلم أن الموت اليومَ كرامةٌ لكل مسلم لقي الله على السنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان، وقلَّة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حلَّ بهذه الأمة من ذهاب العلماء، وأهل السنة، وظهور البدع!

قلت: كيف لو أدرك ابن المبارك زماننا ماذا تراه سيقول ..؟!

قال فُضيل: في آخر الزمان يمشي المؤمن بالتقيَّة، وبئس القوم قومٌ يُمشى فيهم بالتقيّة!

قلت: نحن ــ والله! ــ في هذا الزمان .. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أبو بصير

النَّاسُ وطَلَبُ العِلم

لفضيلة الشيخ

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

www.abubaseer.bizland.com
www.altartosi.com
www.altartosi.info